

وتحيّتهم فيه انتقام



الجمعة 10 يوليو 2015 م 12:07

كتب: احمد الجارون

بكلم: احمد الجارون

....

في داخل كل ذاتٍ صندوقٌ مغلقٌ، مثقل بذكرياتٍ كانت آملة فصارات ألمية، ومتى تنزوِي النفس في ركن خلوتها تمسُك بكسرةٍ من حكايات الماضي فتنهضها وترتب عليها ببساطة أو دمعة، ولكلّ منا أمكنة وأسرار يعبث بها ويقلبها فتطيب خواطره، وبعض الذين فارقوانا بحسدهم يعيشون في ثنایا الفؤاد هائين، فقد حجزوا غرفتهم في أعماقنا دون إيجار، أو ربما كان الدفع مقدماً، ومع الذكريات يحلو العزف على أنيص الكلمات، وتتنعم ما تمنيَناه كاملاً، وحذف ما عكر صفو اللقاء

استشعرت معنى القهـر في خلوتي الضيقـة، أحذتني سـنة من نوم، فإذا بالباب عنـة يفتح فـيـرـتـطم بـبـدـني دون استـئـانـ، وبـصـوت لا يـقـلـ عنـ دـفـعـ السـيـاطـ يقولـ: هـاتـ ماـ كـتـبـ؛ فـاعـذـرتـ أـنـيـ ماـ شـرـعـتـ فـيـ الكـتابـةـ وـسـأـنـفـذـ حـالـ ماـ يـمـكـنـيـ القـبـضـ عـلـىـ القـلـمـ أوـ الإـمـسـاكـ بـالـوـرـقةـ، فـتـعـجـلـنـيـ كـمـنـ يـبـحـثـ عـنـ سـبـبـ أوـ مـبـرـ لـضـريـ، وـقـدـ فـهـمـتـ مـنـ طـلـبـهـ أـنـ لـاـ يـرـيدـ لـيـ نـوـماـ أوـ رـاحـةـ، أـوـ هـوـ نـوـعـ مـنـ العـذـابـ النـفـسيـ الـذـيـ يـنـفـذـ حـسـبـ الأـوـافـرـ العـلـيـاـ

أبحث عن القلم وأتحسس الورقات في الظلام الدامس، وهنا بدأت أتعرف عن مكونات غرفتي، فإذا بعلبة من صفيح يبدو أنها لقضاء الحاجة، فحمدت الله عليها، وإسفنجية أو بقايا منها خشيت الاقتراب منها بادئ الأمر، فحاجتي للنوم لا تحتاج لفراش أو وسادة، وأنا الذي يضئني النوم على وسادة واحدة، فلا أقل من الثنتين، لكن يبدو أنني سأنام مفترشاً قهري ومتلهاً آلاميًّا

قبل ما يقرب من نصف قرن وعلى مسافة تزيد عن ألف كيلو من مسقط رأسي ومثلهاً قدف بي بعد تحقيقِ أحد النهار وزلفاً من الليل في زنزانة تسع نصف آدمي، لا تغتالها مذقةٌ ضوءٌ؛ ولا يفضض بكارتها ومضة نور، أقصى حلمك أن تجلس فيها القرفصاء أو يزيد قليلاً، ثم رمي سجاني بزمِّة أوراقٍ وقلم مهدداً وواعداً: أريدك أن تستطرِّ حياتك مذ ولدتك أفك إلى الآن، لم أتعرض وأنني لـي ذلك؟

رغم ظلام المكان الدامس، فلقد كانت عيوني متورمة لا أستطيع فتحها، وما كان النور يغـنـيـ فـيـ عـيـنـ مـغـلـقـةـ شـيـئـاـ، فـتـحـسـسـتـ الأـوـارـاقـ والـقـلـمـ وـشـرـعـتـ أـكـتـبـ عـرـ ظـلـمـاتـ بـعـضـهاـ فـوـقـ بـعـضـ تـجـمـدـ القـلـمـ وـأـبـيـ نـطـقاـ، وـطـفـتـ بـخـيـالـيـ عـنـ بـدـأـيـةـ الـزـمـنـ لـدـيـ أـلـفـ سـطـرـ أـنـذـكـرـهـ كـنـثـ أـنـتـعـلـ أـدـيـمـ الـأـرـضـ فـيـ حـوـارـيـ وـأـزـقـةـ قـرـيـتـيـ التـيـ كـانـتـ آـمـنـةـ، يـسـرـ جـسـديـ أـطـعـامـ مـهـتـرـئـةـ تـفـضـحـ فـقـرـيـ، وـتـفـصـحـ عـنـ قـلـةـ ذـاتـ الـيدـ، أـمـاـ طـرـفـ كـفـيـ فـلـمـ أـرـهـ يـوـمـ إـلـاـ سـمـيـكـاـ مـاـ يـحـمـلـهـ مـنـ أـوـظـارـ، أـجـلـسـ جـوارـ أـمـيـ سـاعـاتـ طـوـالـ وـهـيـ أـمـامـ النـورـ تـجـهـزـ الخـبـزـ بـرـائـتهـ العـبـقـةـ

أـسـتـجـدـيـهـاـ قـرـاسـاـ أـشـتـريـ قـلـماـ أوـ كـرـاسـةـ لـأـكـتـبـ وـاجـبـ المـعـلـمـ فـأـتـقـيـ صـفـعـاتـهـ أـوـ هـرـاـوـتـهـ، وـبـاـ لـسـعـ طـالـعـيـ وـحـسـنـ حـظـيـ لـوـ وـجـدـ بـقاـيـاـ قـلـمـ

وـقـعـ خـلـالـ الزـحامـ عـنـ فـرـحةـ مـغـادـرـةـ الـمـدـرـسـةـ، هـكـذاـ كـانـ ضـيقـ الـحـالـ لـأـغـلـبـ النـاسـ، وـفـيـ أـيـامـ الـمـدـرـسـةـ يـقـسـمـ الـيـوـمـ بـيـنـ حـجـرةـ الـدـرـاسـةـ وـالـحـقـلـ، فـالـدـرـاسـةـ وـاجـبـ وـالـعـنـيـةـ بـالـحـقـلـ أـوـجـبـ، وـمـتـىـ أـعـلـنـتـ الـاـخـتـيـارـاتـ نـهـاـيـتهاـ يـجـزـ أـبـيـ لـيـ عـنـ مـقـاـولـ الـأـنـفـارـ كـيـ أـعـمـلـ بـالـيـوـمـيـةـ بـقـرـوـشـ مـعـدـوـدـاتـ، فـلـاـ مـكـانـ لـلـتـرـفـ فـيـ حـيـاتـنـاـ، فـحـيـاتـكـ غالـباـ بـيـنـ كـدـحـ الـحـقـلـ وـكـدرـ الـمـدـرـسـةـ؛ وـيـتـحـالـلـهـمـاـ النـومـ أـوـ بـعـضـ سـاعـاتـ مـنـ السـمـرـ

قـبـلـهـ، وـرـاحـ خـيـالـيـ يـتـذـكـرـ اـبـنـةـ الـجـيـرانـ وـأـنـاـ أـرـقـبـهـاـ مـنـ كـوـةـ بـنـافـذـتـيـ، وـيـحـمـرـ وجـهـيـ خـجلـاـ حـيـنـ تـذـكـرـهـ أـمـيـ، أـوـ تـرـسلـنـيـ أـسـتـعـيرـ عـارـيـةـ مـنـ

يـتـهـمـ، فـلـاـ أـرـيـدـهـاـ أـنـ تـرـانـيـ بـعـلـبـسـيـ الرـثـةـ، وـعـلـىـ صـوـتـ الشـيـخـ رـفـعـتـ مـعـ تـبـاشـيرـ الصـبـاحـ، وـحـانـوتـ عـمـيـ عـلـيـهـ الـذـيـ يـبـعـ الطـعـمـيـةـ يـفـتـحـ عـلـىـ سـوـرـةـ يـوسـفـ، أـوـ صـوـتـ فـيـروـزـ الـذـيـ أـسـعـدـهـ بـدـوـنـ فـكـ شـفـرـاتـهـ يـأـتـيـنـيـ مـنـ طـرـفـ شـجـيـ، أـشـتـأـقـ خـرـزـاتـ سـبـحـكـ يـاـ أـبـيـ تـحـمـلـ رـائـحةـ عـرـقـكـ، هـنـاـ شـعـارـهـمـ يـاـ أـيـتـاهـ وـتـحـيـّـتـهـمـ فـيـهـ اـنـتـقامـ

وـأـيـقـنـتـ مـنـ ثـلـاثـةـ عـقـودـ فـيـكـ يـاـ وـطـنـيـ تـسـجـنـ الـعـرـوـءـةـ وـالـدـرـيـةـ فـيـ الـكـتـبـ، وـقـدـرـيـ... أـكـتـبـ أـنـاـ فـيـ ظـلـامـ السـجـنـ، وـجـينـ عـادـ وـقـفـ الـكـلـامـ كـسـكـيـنـةـ بـحـلـقـيـاـ مـدـدـ يـدـيـ بـورـقـةـ كـتـبـ فـيـهـاـ: أـنـاـ إـنـسـانـ، مـتـىـ أـعـيـشـ الـأـنـسـنـةـ؟